بيان فضل أصحاب رسول الله ﷺ على غيرهم

لا ينكر فضل صحابة رسول الله ﷺ، وما بذلوا من الأنفس والأموال حتى تعلو كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، فوق كل عالٍ، وتظهر راياته على أشَمِّ الرواسي والجبال، إلا غافلٌ عما جاء في تنزيل الكبير المتعال، وساهٍ عن أصدق ما قاله ذو الجلال. ومعرضٌ ناءٍ عن سنة رسول الله ﷺ، وما روي عنه من صحيح الأقوال، البعيدة عن المراء والوهم والجدال.

قال تعالى في محكم كتابه. ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ثم أكد ﷻ مرضاته عنهم، بقوله: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح: ١٨، ١٩].

ولا يكمل إيمان المؤمن إلا إذا كان بَرّاً بأهله، رحيماً بإخوانه، شفيقاً عليهم، وكانت تلك إحدى مناقب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وذكرها القرآن الكريم صراحة، فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ

obeikandl.com

﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

وإذا كان الله، جلَّ في علاه، عرف قدرهم، وشكر سعيهم، فما أظلم من جحدهم حقهم، وأنكر فضلهم، ولم يتأسَّ بهم، ويقدرهم حق قدرهم! إنهم مشاعل الهدى والرشاد، الذين تقلبوا في الأمصار والبلاد، واستأصلوا جذور الفساد، ولقد قال عنهم رسول الله ﷺ: «**خير القرون قرني**» فهل بعد ذلك من فخر؟ إنه قرن الذين صَدَّقوا برسالته، وآمنوا بدعوته، وبذلوا الأنفس والأموال لنصرته، ولقد آووه إذ أخرجه الناس، ونصروه إذ خذله الأهل وذوو القرابة، ولقد تَتَرَّسُوا دونه يوم أحد، وتلقَّوْا بأجسادهم طعنات السيوف، ورشقات السهام حتى يحولوا بينه وبين أي سوء قد يناله، ومن ينسى يوم أُحُد موقف المرأة الدينارية، التي مر بها رسول الله ﷺ، وقد أصيب زوجها وأبوها وأخوها مع رسول الله ﷺ، فلما نعوا إليها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان! هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل! أي: سهلة هينة.

لقد زرعوا في نفوس الناس الفضائل، وحذروهم مغبة الانغماس في الرذائل، ونشروا مكارم الأخلاق، في المساجد والبيوت والأسواق، وبَثُّوا فيهم ما نهلوا من العلم الذي علَّمه رب العزة لرسوله ﷺ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، واعتصموا بحبل الله المتين، فكانوا في نعمة من الله وفضل، وأي فضل؟ إنه الفضل العظيم الذي يَمُنّ به الله على من يشاء من عباده. لقد جانب الصواب من لم يعترف لهم برفعة القدر، وعُلُوِّ المنزلة، وسُمُوِّ المكانة، فكيف بمن شتمهم أو سَابَّهم؟ لا أزعم أنه مخطىء، لكنني

أقول: إنه مجرم أثيم، ومسرفٌ في الضلال، ومجاوز في جرأته حد الوقاحة، لتطاوله على من قَدَّمهم رب العالمين، وقرَّبهم أشرف المرسلين.

قال رسول الله ﷺ: **(لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه).**

إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه على سبيل المثال، كان بغير جدال، في الغار مع رسول الله ﷺ، وقال له رسول الله ﷺ: **لا تحزن إن الله معنا**، فإذا كان الله ورسوله ﷺ مع هذا الشيخ الجليل، الذي لم يكن له بين الصحابة مثيل، فكيف تسول لعاقل نفسه أن يشتمه أو ينال منه، أو من «عمر بن الخطاب» الذي كان مضرب المثل في العدالة، أو من «عثمان بن عفان» ذي النورين الذي كانت تستحي منه الملائكة والمخبر عن ذلك رسول الله ﷺ كما في صحيح مسلم، أو علي بن أبي طالب رضي الله عنه خَتَنِ رسول الله ﷺ على ابنته فاطمة الزهراء سيدة النساء، وسِواهم من الصحابة، فكلٌّ له ميزته، وعبقه، ونكهته، كأنها الحديقة التي احتشدت فيها ألوان الأزاهير والرياحين، وفي وسطها رسول رب العالمين.

فأنَّى التفتَّ لم تجد إلا أطيب الطيب، وأزكى العبير. ومن كان على خلاف ما قدمت فما إخاله يحمل إلّا هامةً من العقل خاوية، وليس فيها أذن واعية.

لقد أمر رسول الله ﷺ أمراً علينا أن نصدع به، ونلتزم به، فقد روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **(أكرموا أصحابي)** وفي رواية أخرى: **(احفظوني في أصحابي).**

وقال رسول الله ﷺ في الأنصار: **(لا يحبهم إلا مؤمن، ولا**

يبغضهم إلا منافق). وأخرج مسلم في صحيحه[1]: عن أنس بن مالك، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: **(ما أعددت للساعة؟)** قال: حُبَّ الله ورسولِهِ، قال: **(فإنك مع من أحببتَ)** قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشدَّ من قول النبي ﷺ: **(فإنك مع من أحببت)**.

قال أنس: فأنا أحبُّ الله ورسولَه، وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم![2] ونحن مع أنس، نحب الله ورسوله ﷺ وأصحابه، ومن كانوا يحبون من المؤمنين، وأما من أسرفوا في جرأتهم، وإخفارهم بعهد الله ورسوله ﷺ، وجاؤوا بها عريضة واسعة، فوسموا بعض الصحابة بالكفر، فما أراني قادراً على نعتهم ووصف ما ينتظرهم من سوء المصير، وأَدَعُ ذلك إلى العلي القدير، ليجزيهم بما كسبوا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ومما لا شك فيه أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يتفاوتون في الفضل. وقد ذكر أبو منصور البغدادي[3]، فقال: أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم: الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون بعدهم إلى تمام العشرة، وهم: طلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمٰن بن عوف، وأبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنهم ثم البدريون، ثم أصحاب أحد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية)[4]، ولا يستغربَنَّ أحد تفضيل بعض الصحابة على بعض،

---

(1) صحيح مسلم رقم (١٦٣/ ٢٦٣٩).
(2) العواصم من القواصم: ص ١١.
(3) أصول الدين (٣٠٤).
(4) أسد الغابة (١/ ١٥ ـ ١٦).

بعد أن فُضِّل بعض الرسل قبلهم على بعض، ومصداق ذلك قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ومما لا شك فيه أن الصحابة عدول، وقد عرَّف ابن الحاجب[١] العدالة، فقال: العدالة محافظة دينية تحمل على ملازمة التقوى والمروءة ليس معها بدعة، وتتحقق باجتناب الكبائر وترك الإصرار على الصغائر، وبعض الصغائر، وبعض المباح، وقد شرح ابن الأثير ذلك كما يلي[٢]: قولنا: دينية: ليخرج الكافر، وقولنا: تحمل على ملازمة التقوى والمروءة: ليخرج الفاسق، وقولنا: ليس منها بدعة: ليخرج المبتدع.

وإنَّ أفضلَ رد على من ينتقص أحداً من الصحابة مقاطعتُه في كل الأمور، يقول أبو زرعة: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق؛ لأن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدَّى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة[٣]. والحمد لله رب العالمين.

---

(١) مختصر المنتهى (٢/ ٦٣).
(٢) أسد الغابة (١/ ١٦).
(٣) العواصم من القواصم (ص ٥٧).